

تفسير البحر المحيط

@ 79 @ القمر أعظم من شق الأرض ونبع الماء من بين أصابعه أعظم من نبع الماء من الحجر .
 . وقرأ ابن كثير وابن عامر قال { سُبْحَانَ رَبِّيَ } على الخبر تعجب عليه الصلاة والسلام
 من اقتراحاتهم عليه ، ونزه ربه عما جوزوا عليه من الإتيان والانتقال وذلك في حق □
 مستحيل { هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا } مثلهم { رَسُولًا } ، والرسول لا تأتي إلا بما يظهره
 □ عليهم من الآيات وليس أمرها إليهم إنما ذلك إلى □ . .
 { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا
 أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ
 مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيَّهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكًا رَسُولًا * قُلْ كَفَى
 بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيِّنِي وَبَيِّنَكُمْ إِنَّنِي كَانُ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا
 * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ * اللَّهُمَّ هِدْنِي وَمَنْ يُضِلِّ * فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ
 أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِلَاءً وَجُوهِهِمْ عُمِّيًّا
 وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا مِمَّا خَبَتَ زِدُونَاهُمْ } . .
 الظاهر أن قوله : { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ } إخبار من □ تعالى عن السبب الضعيف الذي
 منعهم من الإيمان ، إذ ظهر لهم المعجز وهو استبعاد أن يبعث □ رسولاً إلى الخلق واحداً
 منهم ولم يكن ملكاً ، وبعد أن ظهر المعجز فيجب الإقرار والاعتراف برسالته فقولهم : لا بد
 أن يكون من الملائكة تحكم فاسد ، ويظهر من كلام ابن عطية أن قوله { وَمَا مَنَعَ
 النَّاسَ } هو من قول الرسول صلى □ عليه وسلم (قال هذه الآية على معنى التوبيخ
 والتلف من النبي عليه الصلاة والسلام كأنه يقول متعجباً منهم ما شاء □ كان { مَا
 مَنَعَكَ * النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا } هذه العلة النزرة
 والاستبعاد الذي لا يسند إلى حجة ، وبعثة البشر رسلاً غير بدع ولا غريب فيها يقع الإفهام
 والتمكن من النظر كما لو كان في الأرض ملائكة يسكنونها مطمئنين لكان الرسول إليهم من
 الملائكة ليقع الإفهام ، وأما البشر فلو بعث إليهم ملك لنفرت طبائعهم من رؤيته ولم
 تحتمله أبصارهم ولا تجلدت له قلوبهم ، وإنما □ أجرى أحوالهم على معتادها انتهى . .
 و { أَنْ يُؤْمِنُوا } في موضع نصب و { أَنْ قَالُوا } : في موضع رفع ، و { إِذْ }
 ظرف العامل فيه منع الناس كفار قريش القائلون تلك المقالات السابقة و { الْهُدَى } هو
 القرآن ومن جاء به ، وليس المراد مجرد القول بل قولهم الناشء عن اعتقاد والهمزة في {
 أَبَعَثَ } للإنكار و { رَسُولًا } ظاهره أن نعت ، ويجوز أن يكون { رَسُولًا } مفعول بعث

، و { بَشَرًا } حال متقدمة عليه أي { أَبَعَثَ اللَّهُ * رَسُولًا } في حال كونه { بَشَرًا } ، وكذلك يجوز في قوله { مَلَكَكَ رَسُولًا } أي { لَنَزَّلْنَا عَلَيَّهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ } { رَسُولًا } في حال كونه { مَلَكَكَ } . وقوله { يَمُشُونَ } يتصرفون فيها بالمشي وليس لهم صعود إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلمون ما يجب علمه ، بل هم مقيمون في الأرض يلزمهم ما يلزم المكلفين من عبادات مخصوصة وأحكام لا يدرك تفصيلها بالعقل ، { لَنَزَّلْنَا عَلَيَّهِمْ } من جنسهم من يعلمهم ذلك ويلقيه إليهم . .
ولما دعاهم صلى الله عليه وسلم) إلى الإيمان وتحدى على صدق نبوته بالمعجز الموافق لداعوه ، أمره تعالى أن يعلمهم بأنه تعالى هو الشهيد بينه وبينهم على تبليغه وما قام به من أعباء الرسالة وعدم قبولهم وكفرهم ، وما اقترحوا عليه من الآيات على سبيل العناد ، وأردف ذلك بما فيه تهديد وهو قوله { إِنْ كَانِ بِرَعِبَادِهِ خَبِيرًا } بخفيات أسرارهم { بِصِيرًا } مطلقاً على ما يظهر من أفعالهم وأقوالهم . والظاهر أن قوله : { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ } إخبار من الله تعالى وليس مندرجاً تحت { قُلْ } لقوله { وَنَحْشُرُهُمْ } ويحتمل أن يكون مندرجاً لمجيء { وَمِنْ } بالواو ، ويكون { وَنَحْشُرُهُمْ } إخباراً من الله تعالى . وعلى القول الأول يكون التفاتاً إذ خرج من الغيبة للتكلم ، ولما تقدم دعوة الرسول إلى الإيمان وتحدى بالمعجز الذي آتاه الله ، ولجوا في كفرهم وعنادهم ولم يجد فيهم ما جاء به من الهدى أخبر بأن ذلك كله راجع إلى مشيئته تعالى وأنه هو الهادي وهو المفضل ، فسلاه تعالى بذلك وأخبر تعالى على سبيل التهديد لهم والوعيد الصدق لحالهم وقت حشرهم يوم القيامة . .
وقال الزمخشري : { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ } ومن يوفقه ويلطف به { فَهُوَ }
الْمُهْتَدِي } لأنه لا يلطف إلا بمن عرف أن اللطف ينفع فيه